

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

الفصل الثاني

السخرية في الشعر العربي القديم

النشأة والتطور

السخرية في شعر العصر الجاهلي:

عندما نتحدث عن السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين، يكون لزاماً علينا أن نلقى الضوء عليها - ولو في عجلة سريعة - في الشعر العربي القديم، حتى ترتبط الفروع بأصولها العريقة في باطن التاريخ الأدبي الطويل.

ونحن عندما ننظر إلى البيئة العربية في العصر الجاهلي، نجد أن "شعر الهجاء كان من أوضح صور السخرية بالخصم، وكان قاسياً وعنيفاً، مريراً يتناسب مع ضراوة الحياة في الصحراء التي لا تعرف الرحمة"^(١).

وشئ طبعي أن تتعدد أضرب الهجاء في البيئة العربية القديمة، فقد كان منه الشخصي، ومنه الاجتماعي، ومنه السياسي، والديني.

والهجاء الشخصي: هو ما يتناول الشاعر فيه عرض المهجو، ونسبه، وأخلاقه وعيوبه

الجسدية. وهو ما درج عليه معظم شعراء العربية.

والاجتماعي: ويراد به "ذلك الهجاء التهكمي، الذي يقصد إلى تجسيم عيب من

عيوب المجتمع، وتصويره في أبشع صورته؛ رغبة في الإصلاح والتقويم.

وقد يتمثل هذا العيب الاجتماعي في شخص من الأشخاص، فيهجوه الشاعر، ويبرز

ذلك العيب بشكل يسترعى انتباه القارئ والسامع، وليس الشخص

قصوداً لذاته في مثل هذا النوع من الهجاء، وإنما المقصود هو هذه السوء الاجتماعية"^(٢).

١- الأدب الساخر، د. نبيل راغب/٢٥ بتصرف يسير.

٢- الشعر الاجتماعي عند جماعة الديوان، د. رزق محمد داود/٨٤ (رسالة دكتوراه ١٩٨٦م).

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

أما السياسي منه: فهو الذى يتناول السلطان، ويمثله شيخ القبيلة وأعوانه^(١). وقد دار الهجاء فى العصر الجاهلى حول الانتقاص من مثل الجاهليين وفضائلهم، والانتقاص من نسب المهجو، والازدراء بمكانة القبيلة، وإلصاق المخازى بها^(٢). ولعل الذى دعانا إلى الحديث عن الهجاء الجاهلى هنا، هو أن السخرية متفرعة عنه بل إنها من أرقى صورته وأساليبه التى وصل إليها مع تطور الحياة. لكن ينبغى أن نعلم أن كل هجاء ليس داخلاً فى السخرية، بل هناك فرق بين هجاء وهجاء فالهجاء المقذع الفاحش الخشن الغليظ، الذى يذكر المعاييب والمخازى بفجاجة ووقاحة، وينطوى على الحقد والسخط، هو هجاء محض. أما الهجاء الذى لا يصدر فيه الشاعر - غالباً - عن حقد أو سخط، وإنما يعمد إلى العبث بأحد الأشخاص، وإظهاره فى صورة هزلية على سبيل التندر والدعابة والظرف^(٣) فهو هجاء السخرية والتندر الذى تقصد إليه هذه الدراسة. وهذا اللون من الهجاء الساخر، يعتمد على الطرافة، أو النكتة، أو الصورة المضحكة.

والسخرية "عنصر هام فى بناء الصورة الهجائية؛ لأن الشاعر يتناول موضوعاً مألوفاً، وربما تعاطف الناس مع المهجو، فلكى يجذبهم نحوه، وينفرهم من المهجو، فلا بد من تأصل عنصر السخرية فى العمل"^(٤).

ومما ينبغى أن يتوفر فى الشاعر الهجاء هنا "أن يكون ذا عين بصيرة وحاسة لاقطة، وإدراك ذكى لماح، يميز بين المشتبه، ويفرق بين الغث والسمين"^(٥).

١- راجع: الفكاهة فى الشعر المملوكى ودلالاتها الرمزية، د. حسن أبو المجد/ ٩١ •
٢- راجع: الهجاء فى الأدب الأندلسى، د. فوزى عيسى/ ١٥، وراجع: اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجرى، د. قحطان التميمي/ ٢١، دار المسيرة - بيروت •
٣- راجع: الهجاء فى الأدب الأمدلسى / ١٨٧ •
٤- الهجاء الجاهلى، د. عباس عجلان/ ٢٨٢ • وكلمة (هام) الواردة فى هذا النص خطأ، والصواب (مهم) •
٥- المصدر السابق والصفحة • وراجع: أسلوب السخرية فى القرآن الكريم/ ٢٣ وما بعدها •

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وبذلك يستكمل الشاعر أدوات إتقان هذا الفن، فيصدر في شعره الساخر عن حس نقى، وانفعال صادق، وقدرة على التصوير.

ففن الهجاء الساخر، لا يكتفى برصد الصور والمشاهد المرئية، وإلا لما كان شيئاً وإنما هو القدرة على خلق صور جديدة متألّفة أو متنافرة مع المهارة الفائقة فى تركيبها. فالشاعر هنا "يخلق خلقاً آخر مبايناً أو مخالفاً للعالم المشاهد، ومعتمداً على علاقات دقيقة يتخذها محاور فنية للبناء الشعري" (١).

هذا، وقد زعم بعض الباحثين أن السخرية فى الشعر الجاهلى لم تكن تسيطر على تعبيرهم الفنى أو تتغلغل فيه كثيراً.

ويرجع ذلك - من وجهة نظرهم - إلى سببين:

الأول: أن العرب لا يعرفون إلا الصراحة فى التعبير، فهم يقومون "بتسديد سهامهم مباشرة من غير خوف أو وجل أو تريث" (٢).

وأسلوب السخرية - كما نعلم - غير صريح، فالشاعر الساخر يقول شيئاً ويقصد عكسه، أو يعرض ولا يصرح، وذلك لخوفه من السخرة كما يحدث فى أيام الكبت السياسى أو الاجتماعى، فهو "أفعى ليس له صوت حين يسير، أو حين يسخر، ولكنه يقتل بسخريته" (٣).
الثانى: أن العرب أمة تتميز بالتأثر السريع، والساخر لا بد أن يكون متحكماً فى انفعاله وثورته ولو إلى حين (٤).

ومهما يكن، فإن ذلك لا يعنى أن السخرية فى الشعر الجاهلى لم تكن موجودة أو لم تكن ذات تأثير فى حركة الحياة، فقد كانت موجودة فى كثير من أشعار الجاهليين ولكنها كانت بسيطة كبساطة نفسية الشاعر الجاهلى.

١- الهجاء الجاهلى، د/عباس عجلان/٢٨١ بتصرف.

٢- السخرية فى الأدب العربى، د. نعمان طه/٦٧.

٣- المصدر السابق نفسه/١٣.

٤- يراجع المصدر السابق نفسه/٦٧.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وليس ذلك بمانع أيضا من وجود بعض صور السخرية- في الشعر الجاهلي تتميز بالعمق والإيجابية والقوة والنفاد والتأثير.

ومن الأمثلة التي تؤكد صدق قولنا، ما قاله (سلمة بن الخرشب)^(١) الغطفاني يهجو (بنى عامر بن صعصعة) رهط عامر بن الطفيل.

وقوم عامر قوم أولو بأس شديد، ولديهم الشعراء ، ولذا كان لابد لسلمة أن يتخير في كلامه الجوانب المؤلة لهم، حتى يجد آذانا تسمع، وقلوبا تعقل ما يقوله.
يقول سلمة^(٢) :

إذا ما غدوتم عامدين لأرضنا	بنى عامر فاستظهروا بالمرائر ^(٣)
إن بنى ذبيان حيث عهدتم	بجزع البتيل بين باد وحاضر
يسدون أبواب القباب بضم	إلى عنن مستوثقات الأواصر
نجوت بنصل السيف لا غمد فوقه	وسرج على ظهر الرحالة قاتر ^(٤)
فأئن عليها بالنى هى أهله	ولا تكفرن لها لا فلاح لكافر

وبالتأمل في هذه الأبيات ، نجد أنها تستند إلى الحقائق الاجتماعية التي عرفت عن أبناء بنى عامر.

ففى معركة كانت بين العامريين وطفان، خنق الحكم بن الطفيل (أخو عامر) نفسه خوفا، فاستغل (سلمة بن الخرشب) هذا الأمر، وأعلن عنه فى مفتتح الأبيات، وكأنه - بذلك - قد عمم هذا الأمر، ووصم به بنى عامر كلهم.

١- هو سلمة بن عمرو بن الخرشب بن نصر الأنمارى، شاعر جاهلى مقل، من بنى الأنمار من بغيض من غطفان، كان معاصرا لعروة بن الورد، وله قصيدتان فى المفضليات (ينظر فى الترجمة: الأعلام، الزركلى، ج ١١٣/٣).
٢- انظر: المفضليات، للمفضل الضبى، ت: أحمد شاكر، وعبد السلام هارون/٣٦، ط/دار المعارف، القاهرة، "والأبيات من البحر الطويل".
٣- المرائر: هى الحبال الجيدة الفتل.
٤- سرج قاتر: هو الجيد التمكن من ظهر الدابة.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

فالبداية – كما نشعر – فيها السخرية المؤلمة المبنية على حقيقة لا يمكن إنكارها فمن أراد منكم يا بني عامر أن يقصد إلينا، فليأت بحبل غليظ كي يشنق به .
وهذه البداية : المرة القاسية ، ربما أثارته سؤالا عن سبب ذلك ، فيأتى البيت الثانى ليزيل هذا الإبهام الذى أثاره البيت الأول .
وقد أبرز الشاعر فى بيته الثانى أمورا ثلاثة: التعريف بالعدو، ومكان الواقعة المعهودة، وحالتهم، وهذا يؤكد مضمون البيت الأول، فما أنزل الهزيمة بكم غير بنى ذبيان، وهم – كما تعلمون – فى مكانهم على منحى جبل البتيل المعروف بنجد ما بين حاضر وباد، وقد حبسوا خيولهم بأفنية بيوتهم لعزتها، وهو بذلك يكشف عن قوتهم، ومدى استعدادهم للغارات .

وقد اثبت الشاعر البيت الثالث ليكمل صورة هذا البناء الفنى المثير .
وأما أنت يا عامر، فقد كتبت لك النجاة، وليس معك من عدتك غير شيئين:
نصل سيف لا عمد له ، وسرج قاتر .
وهذه صورة ساخرة ولاذعة لفارس معلوم ، يخرج من المعركة ومعه سيف بلا عمد وفرس ليس عليه سوى سرج لا يعنى .
كما يرجع الشاعر سبب نجاته إلى فرسه الرحالة، فإن كنت شاكرا فوجه شكرك إلى هذا الفرس ، ولا تدع أنك نجوت بشجاعتك، فلولاها ما نجوت، ولا تكن من الذين يكفرون نعمة من أسدى إليهم معروفًا .

ولا شك فى أن هذه سخرية قاسية من (عامر) ، بل من بنى عامر كلهم .
ونلاحظ أن الشاعر لم يرم بنى عامر بالجبن والضعف والخور بطريق مباشر كما أنه لم يمدح قومه مدحا مباشرا، بل إنه استجمع ما يعلمه عن بنى عامر فى بعض مواقعهم ووظفه هنا توظيفا حسنا يحمل بين طياته ألوانا من السخرية اللاذعة، والتهكم المرير^(١) .

١- انظر الهجاء الجاهلي، د. عباس عجلان/١٩٦٠ وما بعدها .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

ومن الأمثلة التي أعجب بها النقاد، ما جاء عند زهير بن أبي سلمى^(١) من تعريض وتشكك وتجاهل في أمر آل حصن من بنى عليم الكلبين ، حيث يقول^(٢) :

وما أدري وسوف أخال أدري أقوم آل حصن أم نساء؟
فإن تكن النساء مخبآت فوق لكل محصنة هداء

فهو يتشكك في كنه أهل حصن ، هل هم رجال ؟ أو نساء ؟ وهى سخرية مرة تحمل كل ما يريد من وصفهم بالجبن، فهن نساء خبئن في الخدور وينبغي أن يزوجن • وهذا الشك - الذي أبداه الشاعر- أشد في السخرية - من التعريض والقطع في النبأ • ولعل في هذه اللمحة أو هذه الإشارات السريعة ، ما يكشف عن أن فن السخرية كان موجودا في أشعار الجاهليين، مما يدل على أصالة هذا الفن، وعمق جذوره التاريخية • إذن فلا يمكن القطع بأن السخرية كانت لديهم قليلة أو ضعيفة، وإنما يمكن القول بأنها ضاعت مع هذا الشعر وهذا النثر الذي ضاع، ولم يصلنا منه إلا القليل^(٣) •

ويمكن أن نشير-هنا- إلى أن السخرية في العصر الجاهلي إن كانت قليلة فإن ذلك يكون باعتبار النظر إلى العصور التي تلتها ، ويلحظ عليها أنها كانت بسيطة وغير معقدة، وكانت في الغالب تتوجه إلى القبائل المعادية، وإلى بعض الشخصيات المؤثرة في البيئة الجاهلية •

وإنما كانت كذلك؛ لأنها مبنية على الفكاهة والمرح والعبث، وهو ما يخالف طابع الحياة في العصر الجاهلي •

١- هو زهير بن أبي سلمى بن ربيعة بن رباح المزني ، لزم منذ صغره بشامة بن الغدير خال أبيه، فتعلم منه الحكمة، وسداد الرأي، وقد توفي قبل الهجرة بإحدى عشرة سنة (ينظر في الترجمة: - الأغاني، ج ١/٣٣٦ وما بعدها، والأعلام، ج ٥٢/٣) •

٢- ديوان زهير بن أبي سلمى/١٢، دار صادر- بيروت، (بدون تاريخ) والبيتان من الوافر التام •

٣- السخرية في الأدب العربي، د. نعمان طه/٦١ بتصرف •

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

ومن أراد المزيد من شواهد السخرية في هذا العصر، فليرجع إلى دواوين الشعراء وإلى المجموعات الشعرية المختلفة، فسيجد فيها بغيته، وما ذكرته في هذا المقام غيض من فيض^(١) .

السخرية في شعر عصر صدر الإسلام:

عندما ظهر الدين الإسلامي الحنيف بمبادئه السامية، وآدابه الرفيعة، كان "ثورة فكرية إنسانية، عصفت بمظاهر التخلف الديني، والانقسام القبلي، والظلم الاجتماعي، وتبنت مبادئ المساواة والإخاء والعدل، وانتشلت العرب من وهدة الفرقة والصراع القبلي، ليعيشوا أمة عربية واحدة لها أهدافها في الحياة ومشاركتها في سبيل التقدم الإنساني" .

وأمام هذا التقدم الإسلامي الهائل، لم يقف المشركون مكتوفي الأيدي معقودي اللسان، وإنما حاربوا الدعوة الإسلامية، وأرادوا قتلها في مهدها بثتى السبل، وكان من الأسلحة التي استخدموها في هذه الحرب المسعورة: سلاح السخرية، فقد استخدموا هذا السلاح ضد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وضد دعوته .

والناظر في السيرة النبوية لابن هشام، يجد فيها كثيرا من المواقف التي سخر المشركون فيها من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن دعوته .
فقد ذكر أن "الإراشي"^(٢) لما طلب من بعض القرشيين أن يعينوه على رد إبله من "أبى جهل" أشاروا إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهم يهزءون به، لما يعلمون بينه وبين أبى جهل من العداوة، وقالوا: اذهب إليه فإنه يؤديه إليك^(٣) .

١- راجع ما يلي:

- ١- ديوان امرئ القيس، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم/١٢٨، الطبعة الخامسة، دار المعارف ١٩٩٠م .
- ديوان النابغة الذبياني/١٠٩، ١١٠، ط/دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧م .
- ديوان عنتر بن شداد، شرح د. يوسف عيد/٧٨، ط/دار الجبل - بيروت .
- الكامل في اللغة والأدب، المبرد، ت: أبو الفضل إبراهيم، ج ١/١٧١، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٦م .
- ٢- الإراشي: نسبة إلى إراشة، وهى بطن من خثعم . وإراش: هو ابن الغوث، أو ابن عمرو بن الغوث بن بنت مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ، وهو والد أنمار الذى ولد بجيلة وختعم . (ينظر: السيرة النبوية لابن هشام، ت: مصطفى السقا، إبراهيم الأبيارى، عبد الحفيظ شلبى ج ١/٣٨٩، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة ١٩٥٥) .
- ٣- راجع: السيرة النبوية، ج ١/٣٨٩ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وكان مرادهم من ذلك ، أن يسخروا من الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولكن هذا الأمر لم يتم لهم فقد كان عون الله مع رسوله (صلى الله عليه وسلم) حتى رد إليه حقه، وعاد "الإراشي" حتى وقف على مجلس المشركين، وقال: جزاه الله خيرا، فقد - والله- أخذ لي حقي .

وبذلك انقلب الأمر، وتحول الموقف إلى السخرية منهم، وإدخال الغيظ على قلوبهم المريضة . وكان من الأمور الطبيعية في هذا الجو المفعم بالصراعات، أن يخوض الشعر المعركة، وأن يناضل في سبيل نصره الحق، وإزهاق الباطل . "فقد أدرك النبي (صلى الله عليه وسلم) قيمة هذه الحرب الكلامية ، وما تترك من آثار في نفوس الناس، فاستعدى شعراء المسلمين على شعراء أعدائهم ، فكان الهجاء والقتال متلازمين في نشر الدعوة"^(١) .

وبذلك "كان الهجاء من أوسع الأبواب الشعرية التي واكبت الإسلام في مسيرته"^(٢) . وقد ظهر أثر الإسلام على أسلوب الهجاء حينما "هذب النبي (صلى الله عليه وسلم) من أساليبه برفضه التفحش في القول، بل إنه توعد الشعراء المغالين في السباب"^(٣) . وقد كان من شعراء الدعوة الإسلامية: حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك، وكلهم من الأنصار .

أما شعراء المسلمين من قريش، فقد كانوا في ميزان أقل من ذلك في قرض الشعر . وقد فطن النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى أن شعراء الأنصار لا يعرفون أسرار قريش، ولا يدركون عوراتهم، فلو تناولوهم بسلاح الهجاء والسخرية، قد لا يؤثر ذلك فيهم ولذا فقد دلهم (صلى الله عليه وسلم) على من يعرف أسرار الناس، ويحفظ عيوبهم، وهو أبو بكر الصديق فأرشد حسانا إليه وأذن لأبي بكر أن يدلّه على عورات المشركين، ويوقفه على

١- اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، قحطان التميمي/٢٦ .

٢- المصدر السابق/٢٥ .

٣- الفكاهة في الشعر المملوكي، د . حسن أبو المجد/٩٥ بتصرف يسير .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

دخيلتهم، فانطلق لسان حسان وجاد شعره، وغدا سيفاً صارماً، يتوجه إلى رقاب المشركين فيصيدهم في مقتل^(١).

وسوف نذكر- هنا - شاهداً لسيدنا "حسان بن ثابت"^(٢) يسخر فيه من الحارث ابن هشام بن المغيرة، في صورة هزلية، وأسلوب مضحك، فيقول^(٣):

يا حار، إن كنت امرءاً متوسعا	فأفاد الأولى ينصفن آل جناب ^(٤)
خوات أمك، قد علمت مكانها	والحق يفهمه ذوو الأبواب ^(٥)
أجمعت انك أنت الأم من مشى	في فحش مومسة، وزهو غراب
وكذاك ورثك الأوائل أنهم	ذهبوا، وصرت بخزية وعذاب
فورثت والدك الخيانة والخنا	واللؤم عند تقايس الأحساب ^(٦)
وأبان لؤمك أن أمك لم تكن	إلا لشر مقارف الأعراب

وبالتأمل في هذه الأبيات، نجد أنه يسلب هشام بن المغيرة أعز شيمة عرف بها فإن كان يفخر بماله الكثير، فعليه أن يفتدى به خالاته من القيام بأعمال الخدمة والمهانة عند آل جناب (عبد الله بن هبل الكلبي)، لا أن ينفق هذا المال في سبيل الوصول إلى المكانة العالية، لأنه لن يصل إلى شئ من ذلك، بسبب أنه مجهول الأصل.

والأبيات - كما نرى - توظف أسلوب السخرية والتهكم في صورة عنيفة ومؤلمة.

ولعل ما يكشف عن ذلك، هو ذلك النداء الذي يوحى في ظاهره بالإيناس والنصيحة التي تحمل الحقد والمكر، وتعمل على تفجير نيران العداوة.

١- راجع: الهجاء الجاهلي، د. عباس عجلان/٢٣٠، واتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري/٢٦٠.

٢- هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام، ينتهي نسبه إلى يعرب بن قحطان، ولد في منتصف العقد السابع من القرن الثالث الميلادي، وعاش ما يقرب من مائة عام، قضى أكثر من نصفها في الجاهلية، توفي سنة ٤٠ هـ على الأرجح. (ينظر في الترجمة: الأغاني، ج١/٤١، والأعلام ج٢/١٧٥).

٣- ديوان حسان بن ثابت/٣٢، ط/دار ابن خلدون بالإسكندرية (بدون تاريخ)، "الكامل التام".

٤- متوسعا: ذو غنى، ينصفن: يخدمن.

٥- علمت مكانها: منزلتها.

٦- تقايس: تسابق.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وجدير بمن كان يعرف أصله، ويدرك سوء منبته أن ينأى عن الزهو، ولكن هشاما هذا يتعامى عن الحق، وقد يكون له عذره، إذ إنه ليس وحيدا في هذا الشأن، فالمرأة البغى تغلظ القول، والغراب يتدلل ويزهو...^١

وهذه لاشك صور ساخرة ومخزية ومضحكة في آن واحد.

* ومن ذلك - أيضا - ما قاله سيدنا حسان في قبيلة جذام ساخرا منهم^(١) :

مر أبى سمية ما أبالى أنب التيس أم نطقت جذام
ما شاتهم ولدت تنادوا أجدى تحت شاتك أم غلام

فهذه سخرية مرة ولاذعة، وتصوير لحالهم حين يولعون بالحيوان هذا الولوع إلى حد أنهم يفرحون فرحا شديدا عندما تلد شاة لهم.

وتكمن السخرية في رميهم بإتيان الشياه، إذ قد يظنون أن الشاة حملت من أحدهم بغلام، والفعل "تنادوا" يصور فرحهم ودعاء بعضهم بعضا لرؤية هذا المشهد، وهى سخرية موجعة قاتلة.

• ومن أشهر الشعراء الساخرين في صدر الإسلام: "الخطيب" ^(٢).

ومن شعره الذى يهجو به أمه، ويسخر من سوء فعلها قوله^(٣) :

جـزـاك اللـه شـرا مـن عـجـوز ولقـاك العـقـوق مـن البـنـينا
تـنـحى فـاجـلسى مـنـا بـعـيدا أـراح اللـه مـنـك العـالمـينا
أـعـرـبـالـا إذا اسـتـودـعت سـرا وـكـانـونـا عـلى المـتـحـدثـينا^(٤)
ألم أوضـح لك البـغـضـاء مـنى وـلكـن لا إـخـالك تـعـقـلـينا

١- ديوان حسان بن ثابت/١٩١، "الوافر التام".

٢- هو أبو مليكة جروم بن أوس العبسى، ولد في بنى عبيس دعيا لا يعرف له نسب، وكان سئ الخلق، دنئ النفس، فاسد الدين، فاحش اللسان حتى أسكته الموت عام ٥٩ هـ (ينظر في الترجمة: الأغاني، ج ١٤٩/٢ وما بعدها - والأعلام، ج ١١٨/٢).

٣- ديوان الخطيب برواية ابن السكيت، دراسة د. مفيد محمد قميحة/١٨٦، ١٨٧، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية- بيروت - لبنان ١٩٩٣م، "الوافر التام".

٤- أعربالاً: منصوب على إضمار الفعل، أي: أراك غربالاً.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

حياتك ما علمت حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا
فالحطية في هذه الأبيات، يسخر من أمه، ومن سوء أفعالها، ويعرض ذلك
في صور هزلية مضحكة رسمها خياله الشاعر، فهو يدعو عليها بأن تلقى عقوقا وجفاء
من أبنائها، كما أنه يدعو عليها بالموت حتى يستريح العالم من شرها، وهذه سخرية
قاسية؛ لأن من كان موته راحة للعالمين، كانت حياته شرا مطبقا.
ويعلل الشاعر سخريته منها حين يجعلها بمنزلة الغريال، والغريال من شأنه
ألا يمسك ما يجعل فيه، فكذلك هي، السر عندها مكشوف ومعروف.
وحين يجعلها متجسدة على المتحدثين في قوله: "وكانونا على المتحدثينا" والكانون
بمعنى الثقل، وقيل: الذي إذا دخل على قوم حديثهم منه، أو هو كانون النار، والجميع
مؤذ، وكذلك هي، ثقيلة، مؤذية.

فحياتها حياة سوء، وموتها قد يعود بالخير على الناس الذين تتناولهم بشرها.
وأثر الإسلام - كما نشعر - واضح في الأبيات السابقة، وفي التي قبلها يظهر ذلك
من خلال ما يتراءى فيها من سهولة ورقة، وإفادة من الألفاظ الإسلامية.
ونلاحظ أن أهداف السخرية قد تحددت إلى حد ما في ظل الدعوة الإسلامية
الجديدة، فأصبحت تهاجم أعداءها، وتكشف عن مواطن الضعف والنقص عندهم، كما
يلاحظ أن مجالاتها قد اتسعت، فظهرت السخرية من الذات ومن الأسرة ووضاعتها، ومن
بعض الخلال الاجتماعية المذمومة.

وعلى كل حال، فالأمثلة السابقة تؤكد أن السخرية لمعت في أشعار صدر الإسلام
وإن لم تكن قد بلغت من الرقي والتطور ما يجعلها تضارع العصور اللاحقة.
وبذلك يمكننا الرد على "مرجليوث" وعلى الأستاذ محمد خلف الله أحمد، إذ ذهب
الأول إلى أن الأدب العربي يخلو من الفكاهة والسخرية، وأيده الثاني بعض التأييد^(١).

١- راجع: السخرية في الأدب العربي، د. نعمان طه / ٦٨.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

السخرية في شعر العصر الأموي:

حينما تولى " معاوية بن أبي سفيان " الخلافة "بدأت صفحة جديدة من الصراعات الداخلية، التي راح ضحيتها نفر كبير من المسلمين، ذلك أن الأمويين كانوا يعدون في نظر المسلمين غاصبين للخلافة ، وسرعان ما أثمر هذا السخط أحزابا سياسية ثلاثة تعارض بنى أمية^(١) وتدعو إلى محاربتهم وتنحيتهم عن الحكم .

وقد دارت حروب كثيرة بين هذه الأحزاب الثلاثة، وبين بنى أمية، مما أسفر عن مجتمع يتمزق من داخله"^(٢) .

وقد كان هذا الصراع السياسي الدامي الذي نشب مع الحكم الأموي " عاملا خطيرا أدى إلى نمو الهجاء السياسي، إذ انبرى كل حزب من هذه الأحزاب يتبنى فكرة معينة، يفخر بها، ويدعو لها، ويرد على خصومها والطاعنين عليها"^(٣) .

وقد تطور هذا الهجاء - بأثر احتدام الصراعات بين الأحزاب السياسية - إلى "فن له رجاله المعروفون ، ألا وهو "فن النقائص" ، وهو فن طائر الشهرة، تحفل به كتب الأدب العربي، فكم كان له من فرسان جالوا في حلبته، واستطاعوا أن يحدثوا فيه من الطرائف المضحكة التي استمدت كيانها من الأهاجي الطريفة"^(٤) .

وقد ظهر ذلك بوضوح عند كل من: جرير، والفرزدق، والأخطل .

وقد عد جرير والفرزدق من أبرز الشخصيات العربية في عالم الهجاء الساخر، وقد فطن جرير إلى مقدرته على الهجاء الضاحك، حيث كان يقول: "إذا هجوت فأضحك"^(٥) .

١- وهم: الزبيريون، والخوارج، والشيعة .

٢- الدراسات الأدبية، د منصور عبد الرحمن وآخرين/٦، ٨ بتصرف يسير، ط/دار الهلال للطباعة والتجارة ١٩٨٤م-١٩٨٥م .

٣- اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، قحطان التميمي/٢٦ .

٤- الفكاهة في الشعر المملوكي ، د حسن أبو المجد/١٠١، بتصرف يسير .
وراجع: الأدب الأموي ملامح وأعلام، د صلاح زرق ، القسم الأول/٩٦ وما بعدها الطبعة الأولى، مطبعة العمرانية - الجيزة، الناشر: مكتبة الآداب - القاهرة ١٩٩٥م .

٥- راجع: المصدر السابق/١٠٢ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

ومما كان سببا مباشرا في كثرة الهجاء في هذا العصر أيضا "وجود المواقف الفردية لبعض الشعراء في علاقاتهم بعضهم ببعض، أو علاقاتهم ببعض الولاة والعمال حين يرضون أو يسخطون" (١).

ومن خلال استقرار شعر الهجاء في العصر الأموي، يمكننا أن نلاحظ عليه "الميل إلى الفكاهة والسخرية، وتلك سمة تقترب غالبا بمواقف المرح ومجالس المسامرة والمنادمة ومحاولة إخراج الأمور مخرجا غير جاد" (٢).

ومع أن ظاهرة السخرية اتضحت بصورة كبيرة في العصر الأموي، إلا أنها كانت أكثر وضوحا فيما يليه من عصور وحقب. ومما يمثل به هنا: قول جرير في هجاء الفرزدق والتهكم به (٣):
زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا
أبشر بطول سلامة يا مربح!

فجرير هنا يسخر من الفرزدق سخرية لاذعة، وهذه السخرية تكمن في قوله: "أبشر بطول سلامة يا مربح"، ذلك أنه يعلم أن الفرزدق يرغب في المزيد بالوعيد ولكنه في حقيقة الأمر لا يستطيع تحقيق ما يتوعد به غيره، لضعفه وقلة عشيرته وقد استغل جرير- هنا- صيغة الأمر في الفعل (أبشر) استغلالا فيه كثير من السخرية بالفرزدق والتهوين من شأنه.

ويسخر جرير من الفرزدق - أيضا - ، ويعيره بعملة في الحداة، ويذكر أن قبر غالب أبي الفرزدق قد رجف من اهتزاز الأرض حوله، لكثرة ما تتعرض له من طرق للحديد، فيقول ساخرا (٤):

رجف المقر وصاح في شقيقه
قنين عليه دواخن وشرار

١- الأدب الأموي ملامح وأعلام، د. صلاح رزق، القسم الأول/ ١٥٦ .

٢- المصدر السابق/ ١٥٩ .

٣- ديوان جرير، تحقيق: د. نعمان طه، ج ٢/ ٩١٦، دار المعارف بمصر ١٩٧١م، "الكامل التام".

٤- شرح ديوان جرير، قدم له وشرحه: تاج الدين شلق/ ٢٢٠، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي ١٩٩٣م "الكامل التام".

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

فهو يصور هذا القين، وقد تطاير الشرر حوله، وغشاه الدخان المتصاعد من النار وهي صورة هزلية مضحكة ماثلة كأننا نراها أمام أعيننا.

ويزيد جرير في التهكم بالفرزدق، عندما يتخيل أن حدراء خطيبته قد دعت ربها "المصور" الذي صور الفرزدق بهذه الصورة القذرة ألا يجعله قرينا لها، يقول^(١) :

حدراء أنكرت القيون وريحهم	والحر يمنع ضيمه الإنكار
لما رأت صدأ الحديد بجلده	فاللون أورق، والبنان قصار
دعت المصور دعوة مسموعة	ومع الدعاء تضرع وجوار
عادت بربك أن يكون قرينها	قيناً أحم لفسوه إعصار

فجرير - في هذه الأبيات - يمنح الفرزدق من صفات القيون، ما يجعل "حدراء" خطيبته تنكره، وترفض أن يكون لها قرينا، خاصة وأن صدأ الحديد قد امتزج بلونه الأسود، وأصابه القصيرة، فأبداه في صورة ساخرة مقززة تثير الانقباض.

ثم زاد جرير في عمق السخرية، عندما تخيل أنها دعت بها المصور، الذي صور الفرزدق بهذه الصورة المقوتة، أن يخلصها منه؛ لأنه بنس القرين. ثم إنه ضاعف الهزء به عندما وصفه بكلمة "أحم" التي فيها من الاستصغار والهزء مالا سبيل لوصفه أو لتصويره، بل تحسه الأذن فيبتسم الثغر، ثم يكبر جرير صورة فسء الفرزدق فيجعل منه إعصارا، وهذه سخرية قاسية مميتة

• ومن السخرية أيضا قول الأخطل في قوم جرير^(٢) :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم	قالوا لأهمم: بولى على النار
فضيقت فرجها بخلا ببولتها	فلا تبول لهم إلا بمقدار

١- المصدر السابق نفسه، والصفحة والبحر.
٢- ديوان الأخطل، تحقيق: فخر الدين قباوة/٦٣٧، الطبعة الثانية، دار الأفاق، بيروت ١٩٧٩م، "البسيط التام"

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

فالبیتان السابقان ينطويان على سخرية لاذعة، وقد عبر الشاعر عنها عن طريق إدخال عنصر الإضحاك في كلامه: نفيا للملل والنفور، لأن الشاعر كلما أخرج كلامه في صورة هزلية، كان ذلك أدعى إلى القبول، وأدعى إلى التعلق به.

ولعل منشأ السخرية في البيتين: هو المبالغة المفرطة في وصف قوم جرير بالبخل المزرى، كما تطل السخرية من البيت الثاني في هذه الصورة المضحكة التي رسمها الشاعر لأهمهم، وامتھانها بهذه الصورة الوضیعة.

وأخيراً، نجد قول "بلال بن جرير" ^(١) الذي يسخر فيه من بخل خالد بن جندل يقول ^(٢) :
نزلنا بخالد فأشلى كلابه علينا، فكدنا عند بيته نؤكل
تناومت نصف الليل ثم أتيتنا بقعبين من ضيح وما كدت تفعل
فقلت لأصحابي مسرا إليهم أذا اليوم أم يوم القيامة أطول؟

فهذه الأبيات تفيض بالسخرية المرة من خالد هذا، ذلك أنه يضرب بسهم وافر في اللؤم والخسة، فهو عند نزول الضيوف به، يغرى بهم كلابه الشرسة حتى تكاد تأكلهم. وقد كان العرب يعدون حلم الكلب وجبنة عند لقاء الضيوف نوعاً من الفخر لكن كلاب خالد تكاد تأكل الضيف، ومما زاد الأمر دمامة أنه هو الذي يدعوها إلى ذلك. وتكمن السخرية في البيت الثاني في قوله: "تناومت نصف الليل" فقد ادعى النوم، وليس بنائم، حتى يبئس أضيافه من انتظار الطعام فيناموا، ثم بعد أن استيئسوا منه إذا به يأتي إليهم بقدحين من اللبن الغليظ المخفف بالماء، حال كونه متردداً في تقديمه لهم أو البخل به عليهم.

وهذه سخرية مزرية، تنم عن لؤم في الأصل، وخسة في الطبع.

١- هو بلال بن جرير بن عطية بن الخطفي، أبو زافر، من بني كليب بن يربوع، شاعر الهجائين، قالوا: إنه كان أفضل إخوته من أبناء جرير وأشعرهم (ينظر في الترجمة: الأعلام، ج ٢/٧٢).

٢- الوحشيات، لأبي تمام الطائي/٢٢٥، حققه: عبد العزيز الميمنى الراجكوتي، وزاد في حواشيه: محمود شاكر، الطبعة الثالثة، دار المعارف ١٩٨٧م، "البحر الطويل".

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وتبدو سخرية الشاعر في بيته الثالث أكثر إيلاما وإيجاعا ؛ لأن الشاعر سلك فيها طريقا غير مباشر ، وهو الشك والتجاهل .

ومن خلال هذه النماذج ندرك أن فن السخرية قد ارتقى في هذا العصر عن العصر الجاهلي ، وصدر الإسلام .

ولعل ذلك يتجلى في : نمو السخرية السياسية بين الأحزاب، والميل العام لدى الشعراء إلى السخرية، وإخراج الكلام مخرجا غير جاد، فضلا عن تركيزهم على إدخال عنصر الإضحاك في كلامهم، وذلك من أسباب تهيئة النفوس لقبوله وحفظه .

السخرية في شعر العصر العباسي^(١) :

عندما ننظر إلى العصر العباسي (الأول، والثاني)، نجد أنه كان قمة العصور الأدبية، فقد ارتقى فيه الأدب وازدهر بصورة لم تتحقق له من قبل في عصوره السابقة .

وبجانب هذا التطور الأدبي، حدثت تطورات كبيرة أخرى في مجالات الحياة المختلفة، وكان ذلك بفعل مجموعة من العوامل المتشابكة الفاعلة، حيث "كان للحضارات الأجنبية من فارسية وهندية وسريانية، وغيرها تأثير كبير في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في هذا العصر، وكان للأدب - مرآة الحياة في شتى وجوهها - نصيب كبير من التطور، فسار فيه تيار جديد، شمل الأسلوب والموضوعات، وكان لرقى العقلية العربية وازدياد نموها الثقافي واحتكاكها الاجتماعي أثرى أثر في تطور السخرية وشيوعها، وبخاصة في ذلك المجتمع الذي انتشر فيه الترف ورغد العيش، وشاعت فيه الفكاهة والظرف، فلا غرابة أن يظهر العديد من الشعراء والكتاب الذين يتسم أدبهم بالسخرية : كبشار بن برد، وأبى نواس، وحماد عجرد، وعبد الصمد بن المعذل، ومنصور الأصفهاني ، والعتبي والحمدوني، وابن الرومي، وابن سكره، وغيرهم كثيرين" (٢) .

١- يبدأ العصر العباسي من عام ١٣٢هـ، وينتهي بسقوط الدولة العباسية، واستيلاء التتار على بغداد سنة ٦٥٦هـ .
٢- السخرية في الأدب العربي، د. نعمان طه / ١١٢، وراجع: اتجاهات الهجاء، للنميري / ٢٩ .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

ومعنى ذلك، أن الأدب العباسي، قد أخذ بأسباب التطور والرقى، وتخلّى عن السذاجة، ومظاهر البداوة التي كانت تشيع في أدب بعض العصور السابقة. ولم تعد السخرية – في هذا العصر – مجرد وسيلة للإضحاك أو الدعابة وإنما أصبحت ظاهرة ضرورية ملحة لخدمة المجتمع^(١).

ف"الفكاهة في الأدب العباسي – والسخرية نوع منها – واجهة ظاهرة تخفى خلفها كثيرا مما يستتر ولا تراه العين المجردة في المجتمع. والفكاهة ليست مجرد ضحكة عابرة تمر وتنسى، بل إنها – في الواقع – تعبير مكثف وسريع، يخفى حقائق اجتماعية وسياسية وفكرية حفل بها ذلك المجتمع الزاخر المتفتح على شتى الثقافات، الذي تصارعت فيه مذاهبها واتجاهاتها وانعكست على طبيعة علاقاته ومفاهيمه.

والذي يطالع أدب الفكاهة في هذا العصر، يجد أنه صور المجتمع العباسي بطبقاته المختلفة أحسن تصوير، كما أنه رسم ما يعتمل بين هذه الطبقات من صراعات ولم يدع أدب^(٢).

ولقد كان هذا التطور الذي لحق فن السخرية في هذا العصر، أثرا من آثار التطور الذي لحق فن الهجاء، ف"الهجاء لشدة ارتباطه بالنفس كان أسرع الأعراس الشعرية استجابة لهذا التطور، فقد كثر شعراؤه واتسع نطاقه، وتوطدت موضوعاته السياسية والمذهبية والشخصية والاجتماعية، فأصاب تحولا بينا عن التهاجى القديم، وخاصة هجاء العصبية القبلية بعد أن خفت حدة هذه العصبية إلى حد كبير، متغلغلا في مطاعن خلقية ونفسية"^(٣).

١- راجع: شعر الهجاء بين الحطينة وابن الرومي، للباحث/عادل نصورة/٧٩٠.
٢- الفكاهة في الشعر المملوكي، د. حسن أبو المجد/١٠٥، ١٠٦.
٣- اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، قحطان التميمي/٢٩٠.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

ولقد كان لروح المنافسة بين الشعراء العباسيين أثرها الواضح في فن الهجاء حيث فتشوا عن الخفى من المثالب والعيوب في الأشخاص، وتناولوها وتفننوا في تصويرها وتجسيد ملامحها حتى في الخلفاء والوزراء ، إن دعت الحاجة إلى ذلك أو أحس شاعر بظلم من أحدهم، "وبذلك كان الهجاء الشخصي هو اللون العام في العصر العباسي" (١).

ويخيل إلى أن السرفى ذلك يرجع إلى: تنامى الروح الفردية، والاستقلال الشخصي عند أبناء ذلك العصر، خلافاً لذي قبل حيث غلبت القبلية والحزبية.

وغير خاف أن الذى يدخل معنا فى السخرية من هذا الهجاء ، هو ما ابتعد الشاعر فيه عن ذكر العورات، وعن الإقذاع والإفحاش فى القول، مما يدل على الارتباط الوثيق بين الهجاء وبين فن السخرية، كما أشرنا من قبل.

ولعل أهم ما يلاحظ على السخرية فى هذا العصر: أنها مالت إلى جانب السهولة فى الأسلوب، والبساطة فى التعبير والصياغة، بحيث أصبحت قريبة مما يلهج به الناس فى أحاديثهم.

كما نلاحظ أنها مالت إلى نظم المقطوعات القصيرة؛ طلباً للخفة وسرعة إيلاام المسخور منه (٢).

وقد غلب على شعر السخرية فى هذا العصر اتجاهان:

الأول: الاتجاه التقليدي: ونقصد به السخرية الصريحة المباشرة.

ومن ذلك قول "بشار بن برد" (٣) ساخراً من الخليفة المهدي، وضياح الأمر من يده إلى "يعقوب بن داود" (٤) سنة ٦٣هـ، وانشغل هو بالشرب واللذات والغناء (٥):

- ١- العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف ٤٢٨/، الطبعة التاسعة دار المعارف ١٩٩٤م.
- ٢- راجع: السخرية فى الأدب العربي، د. نعمان طه/١١٢، واتجاهات الهجاء، قحطان التميمي/٢٩.
- ٣- هو بشار بن برد بن يربوخ العقيلي بالولاء، كنيته أبو معاذ، ولقبه "المرعث" والرعة: هى القرط فى الأذن، ولد بالبصرة، وتوفى سنة ١٦٧هـ.
- ٤- ينظر فى الترجمة: الأغاني ج٣/١٢٧ وما بعدها، والأعلام، ج٢/٥٢.
- ٥- أصله من الموالي، وقد سلمه المهدي أمور الدولة، وتفرغ هو لنفسه.
- ٥- انظر: وفيات الأعيان، ج٢/٢٣٧، ومختارات البارودي، ج٤/٤٠١، "البسيط التام".

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ساعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود^(١)

فبشار هنا يهيب بالأمويين أن يستيقظوا من نومهم؛ ليستعيدوا خلافتهم التي سلبها العباسيون منهم؛ لأن الظروف مواتية، والخلافة العباسية في ضعف شديد، إذ إن الخليفة الحقيقي هو الوزير "يعقوب بن داود".

أما الخليفة: الرسمى الاسمى فهو فى شغل عن الخلافة باللهو والشراب.
والسخرية تكمن فى أن بشارا لم يكن مواليا للأمويين – كما قد يبدو من ظاهر الكلام – وإنما أراد أن يصل بتهمه إلى أشد المواضع حساسية فى بنى العباس، وأعنفها إيلا ما لهم؛ حتى يتيقظوا ويحافظوا على الحكم.

كما تكمن السخرية فى قوله: "فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود" وهى سخرية قاتلة مميتة، تظهر مدى الإفراط فى اللهو والتخلى عن سياسة الدولة.

لذا يذكر بعض النقاد أن المهدي لما بلغه ذلك، أمر بضربه بالسوط حتى مات ١٦٧هـ ومن السخرية من البخلاء والأشحاء قول "أبى نواس" ^(٢) فى العباس بن جعفر بن الأشعث الخزاعى^(٣) :

ألوم عباسا على بخله كأن عباسا من الناس
وإنما العباس فى قومه كالثوم بين الورد والأس

فالمعنى الذى يحمله الشطر الأول معنى لا بأس به، إذ إن لوم الإنسان على بخله أمر عادى، ولكن يأتى الشطر الثانى من البيت حاملا بين أعطافه سخرية حادة مؤلمة

١- الزق: كل وعاء اتخذ للشراب. والعود: آلة موسيقية ذات أوتار.
٢- هو الحسن بن هانى بن عبد الأول الحكيم، وهو من الشعراء المولدين، ولد بقرية من قرى الأهواز، ونقل إلى البصرة، ونشأ بها، ثم انتقل إلى بغداد وتوفى بها سنة ١٩٩هـ. (ينظر فى الترجمة: الأغاني ج ٩/٢ وما بعدها، ج ٢٢٥/٢).
٣- ديوان أبى نواس/٣٨٦، دار صادر – بيروت (بدون تاريخ)، "البحر السريع".

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

فقلوه: "كأن عباسا من الناس" فيه لجوء إلى أسلوب التشكيك والتجاهل في أمر عباس هذا أهو من جنس الناس حقا أم من جنس آخر؟! وهو أسلوب شائع الاستعمال، ولكنه مؤلم. وقد جاء البيت الثاني ليقوى هذا المعنى ويؤكدده، حين يجعل الشاعر العباس بين الناس بمنزلة الثوم – برائحته المعروفة – بين الورود ذوات الرائحة الطيبة وهكذا تبلغ السخرية هنا، حدا مزريا ، إذ إنها تقوم بعملية سلخ للعباس ابن جعفر هذا من قائمة الناس، وإضافته إلى قائمة البقول ذوات الرائحة المكروهة المؤذية.

ويقول (أبو نواس) في الفضل بن العميد الرقاشي^(١):

أمات الله من جوع رقاشا فلولا الجوع ما ماتت رقاش
ولو أشممت موتاهم رغيفا وقد سكنوا القبور إذا لعاشوا

عادة ما يتخذ الشعراء من العادات الاجتماعية مادة للسخرية، وقد عرف بنو رقاش بأنهم يظهرون الغنى وهم فقراء، ويظهرون العزوهم أذلاء، ويظهرون التعالي والفخر وهم من أسافل الناس.

وقد أخذ ذلك أبو نواس، واستغله في السخرية منهم، والتندر بهم، فبنو رقاش لا يموتون موتا عاديا ككل الناس، وإنما يموتون جوعا ومسغبة. ثم يسخر منهم سخرية لاذعة في البيت الثاني، عندما يجعل ميتهم يعود إلى الحياة مرة أخرى إذا أشمته رغيفا من خبز، فكيف به لو أكله. والصورة التي رسمها الشاعر لبني رقاش مضحكة، فالذي يعيد ميتهم إلى الحياة أن تشممه رغيفا، أيا كان هذا الرغيف. ويقول ابن الرومي – أحد أئمة السخرية في هذا العصر- ساخرا من صاحب لحية طويلة^(٢):

١- ديوان أبي نواس/ ٣٩٦ والرقاشي: نسبة إلى بني رقاش في بكر بن وائل، سموا باسم أمهم.
٢- ديوان ابن الرومي، شرح أحمد حسن بسبح، ج ٢/٢٣، ٢٤، الطبعة الأولى - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

إن تطل لحية عليك وتعرض
علق الله فى عذاريك مخللة
لو غدا حكمها إلى لطارت
ارع فيها الموسيقى فإنك منها
- لحية أهملت فسالت وفاضت
فاتق الله ذا الجلال وغير
او فصره منها فحسبك منها
لو رأها النبى لأجرى

فالمخالى معروفة للحمير
ولكنها بغير شعير
فى مهب الرياح كل مطير
شهد الله فى أتام كبير
فإليها تشير كف المشير
منكرا فيك ممكن التغيير
نصف شبر علامه التذكير
فى لحي الناس سنة التقصير

هذا النص يفيض بروح السخرية والتهكم من بدايته إلى نهايته، فهذه اللحية التى أهملت حتى غطت وجه صاحبها، هى تشبه مخللة الفارغة التى تعلق فى رقبة الحمار، وهذه اللحية مهما بلغ طولها وعرضها، فهى لن تزيد صاحبها شيئاً من الإجلال والتكريم، لذا فالأحرى بذلك الإنسان أن يرمى فيها الموسيقى؛ حتى يتخلص من هذا الإثم الذى يرتكبه بسببها.

"وواضح أن روح المناقشة والحجاج - فى الأبيات المتقدمة - تطغى على الروح الشعرية الحقيقية، فقد استغل الشاعر هذا الموضوع ليعبر من خلاله عن معنى فى نفسه معنى التفاوت بين فرد وآخر فى كثير من جوانب الحياة"^(١).

وإن كانت السخرية التى تحملها الكلمات والعبارات بين طياتها سخرية مؤلمة موجهة، فهى تبلغ حدا لا يطاول فى الإيلام والإيجاع، وقد اعتمد الشاعر فى ذلك على المبالغة والتزديد، وهذا الأسلوب يناسب السخرية، فالإسراف فى كل شئ يضحك حتى ولو كان فى

١- اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجرى ، قحطان التميمي/٦٨٠

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

الفضائل ، ثم إن هذا الأسلوب مرتبط بشيء في نفسية الشاعر، وهو "أنه كان لا يرتاح لمنظر الإسراف في إطالة اللحي، ولا يقع من نفسه موقع رضى وقبول" (١).
والشاعر وإن كان مجيدا - هنا- من الناحية الفنية، إلا أننا لا نوافق على إسرافه وغلوه في وصف اللحي وأصحابها؛ لأن إعفاء اللحية سنة محمدية، وفطرة إنسانية. •
ولما كان ابن الرومي يعلم أنه يبالغ ويتزيد ، فقد صدر بيته الأخير بـ"لو" التي تخفف من شدة المبالغة ، وتحد من إفراط التزيد.
ومن السخرية الحادة القائمة على الوصف المضحك، قول ابن الرومي في وصف رجل أحذب (٢) :

قصرت أخادعه وغاب قذاله فكأنه متربص أن يصفعا (٣)
وكأنما صفعت قفاه مرة وأحس ثانية لها فتجمعا

فابن الرومي هنا يصور قصير العنق، طويل الشعر المتدلى على ظهره لا على عنقه منقبضا منكمشا قد التصق رأسه بظهره في حركة تشنجية، لأنه يتوقع أن يصفع على قفاه، وكأنما قد صفع مرة وآله الصفع، فهو يتجمع ليتقى الضربة الثانية، مما جعله مصفوعا طوال الدهر (٤).

وابن الرومي لا يبارى في الوصف الساخر الضاحك، فقد رزق ملكة خاصة في السخرية والدعابة (٥).

وابن الرومي - كذلك - يعبت بمهجوه عبث أصحاب الكاريكاتيرية حتى

١- المصدر السابق/٦٧ •

٢- البيتان لم أعتز عليهما في ديوان ابن الرومي على الرغم من شهرتهما ، وانظرهما في: الفكاهة في الأدب، د. أحمد الحوفي، ج ٥٩/١، والشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، د. شوقي ضيف/١٠٤، الطبعة الثانية، دار المعارف ١٩٧٧م. والحدب: دخول البطن والصدر وخروج الظهر وارتفاعه، وضده القعس: وهو دخول الظهر وخروج الصدر (لسان العرب، ج ٣٠٠/١) •

٣- أخادعه: عروق بجانب العنق. والقذال: جماع مؤخر الرأس من الإنسان، وهو ما فوق القفا.

٤- راجع: الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، د. شوقي ضيف/١٠٤ •

٥- راجع: التوجيه الأدبي، د. طه حسين وآخرين/١٧٤، مطابع دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٥٣م.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

يصيبه في مقتل "معتمدا في ذلك على مهارته الفنية التي تجسد وتشخص ما يريد إصاقه من صفات ساخرة"^(١).

وقد جسد ابن الرومي لون بشرة بعض المغنيات في سخرية وتهكم لاذع حين يقول^(٢):

رشيت بخيلانها فجلدتها منقوشة مثل جلد النمرة^(٣)

فابن الرومي - في هذا البيت - يقف موقف الرسام الحاذق، الذي يستطيع بقدرته الفنية، وحسه المرهف أن يبرز مناطق القبح في هذه المغنية التي تسمى (شاغل) فقد صور جلدها بانه مطبوع بألوان سوداء موزعة توزيعا دقيقا في كافة جسدها، وقد صورت لفظه (رشت) في البيت هذا التوزيع الدقيق.

وعندما أراد ابن الرومي أن ينقل هذا الشكل إلى مخيلة السامع أو القارئ، وصفه وصفا دقيقا مشبها له بجلدة النمرة.

وأخيرا نجد قول "أبي الشمقمق"^(٤) الذي يسخر فيه من بخل "جعفر بن أبي زهير" بالطعام، وقد كان له ضيفا، يقول^(٥):

أيت الخبز عز لديك حتى حسبت الخبز في جوالسحاب
وما روحتنا لتذب عنا ولكن خفت مرزئة الذباب

ففي هذين البيتين، نجد أبا الشمقمق يسخر من شح جعفر بن أبي زهير، فالخبز عنده عزيز ومتخف لا تراه عين ناظره، ولا تقع عليه، وكأنه فوق السحاب لبعده عن متناول أيدي

١- الوصف الساخر بين ابن الرومي وابن المعتز، إعداد: نادية أحمد مسعد/٥٣، (رسالة دكتوراة ١٩٨٥ م)

٢- ديوان ابن الرومي، ج ١٠١/٢، ص ١٠١.

٣- الخيلان: جمع خال، وهو الشامة السوداء التي تكون في البدن (اللسان، ج ٢٢٩/١١).

٤- هو مروان بن محمد، شهد نهاية الدولة الأموية، وعاش بقية حياته في أحضان الدولة العباسية في القرن الثاني الهجري، لازمه الفقر طيلة حياته بالبصرة حتى مات ١٨٠ هـ (الأعلام، ج ٢٠٩/٧).

٥- ديوان أبي الشمقمق، جمع وتحقيق وشرح: واضح محمد الصمد/٢٩، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٩٩٥ م، "الوافر التام".

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

الضيوف، وهو حين يروح ضيوفه عند تناولهم الطعام لا يقصد من ذلك العمل على إراحتهم، وإنما يجاهد الذباب حتى لا يختطف شيئاً من الطعام، فيكون ذلك نقصانا منه.

وهي سخرية لاذعة من بخل جعفر هذا، وقد صورها الشاعر في صورة هزلية مضحكة، وان كانت ذات دلالة عميقة على هذا المرض النفسي.

الثاني: الاتجاه التجديدي:

وهو ما يتمثل في السخرية غير المباشرة أو غير الصريحة، وفيها يتناول الشاعر صفة من صفات المهجو- المسخور منه- بغرض تعليلها ومدحها في الظاهر وبغرض السخرية منها، والعبث بصاحبها في باطن الأمر، وهذا الأسلوب أدخل في السخرية وأوجع. ومن ذلك قول الشاعر "حماد عجرد"^(١) ساخرا من "حريث بن أبي الصلت"^(٢):

تريث أبو الصلت ذو خيرة بما يصلح المعدة الفاسدة
تخوف تخمة أضيافه فعودهم أكله واحدة

نجد الشاعر- كما هو ظاهر- لا يسخر من بخل "حريث" هذا بطريق مباشرة، وإنما يسلك طريقاً أخرى، فيأتي بكلام ظاهره حلو، وباطنه مرقاتل، والشاعر يلتمس لبخل المسخور منه علة طريفة، وهي أنه يخاف على ضيوفه من التخمة، ولذا فهو يبخل عليهم بطعامه، وهي سخرية لاذعة كما لا يخفي.

وهكذا نجد العصر العباسي يتربع على قمة الأدب الساخر، حيث وجد فيه كثير من الساخرين والمهرجين، وأهل المجون، كأثر من آثار تنوع الثقافات، وامتزاج الأجناس، واتساع رقعة الدولة العباسية، كما تنوعت فيه السخرية، وازدادت عمقا وقوة في اللغة وفي طرائق الأسلوب التي استعملها الشعراء.

١- (هو حماد بن يحيى بن عمرو بن كليب، نشأ بالكوفة، وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، نظم الشعر في أغراضه المختلفة ولاسيما الهجاء، قتل ١٦١هـ بالأهواز. (ينظر في الترجمة: العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج٢٥٨/١، الطبعة الأولى، دار الإمام على للطباعة والنشر سنة ١٩٩٢م).

٢- البيتان من كتاب: الشعر في بغداد، د. أحمد عبد الستار الجوارى/٢٤١، طبعة وزارة المعارف العراقية.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

السخرية في الشعر الأندلسي:

يطلق "العصر الأندلسي: على الفترة التي حكم فيها المسلمون بلاد الأندلس وذلك من عام ٩٢ هـ إلى عام ٨٩٧ هـ .

وكلمة الأندلس في التاريخ الإسلامي يراد بها: المنطقة التي تضم البرتغال وجنوب أسبانيا، والتي كانت تعرف قديما بشبه جزيرة أيبيريا .

وهي تقع في الجنوب الغربي لقارة أوروبا في مواجهة المغرب الأقصى .

والمتمتع للأحداث التاريخية في الأندلس ، يشعر أن الأندلسيين لم يقدر لهم الاستمتاع بحياة سياسية مستقرة ؛ فعهد الولاة كان عهدا مضطربا، قامت فيه من ناحية ثورات البرابرة ضد العرب، واستحكم الشقاق والتنافس من ناحية أخرى بين مختلف الولاة القادمين من الشرق، وانتقلت معهم العصبية القبلية، وبدأ نزاعها ظاهرا بين القيسية واليمينية .

وأخذت عوامل الضعف والانقسام تدب في كيان المجتمع الأندلسي، ففي أواخر حكم الأمويين ابتليت الأندلس بخلفاء ضعاف، وسرعان ما أضحت البلاد نهبا لفتنة عاتية قضت على الخلافة الأموية، ومزقت وحدة الأندلس، وانقسمت إلى دويلات يستأثر بكل دولة منها حاكم، أو أمير، وأنفق أمراء الطوائف أموالا طائلة في تشييد الحصون لحماية ملكهم، وانساقوا وراء مصالحهم الذاتية، حتى انتهى الأمر بهم إلى أن يدفعوا – صاغرين – الجزية للروم .

ودارت رحى الحرب فيما بينهم، واستعانوا بالروم في حل خلافاتهم، بل إن بعضهم تحالف مع الروم ضد جيرانه من المسلمين .

وبعد أن دالت دولة الطوائف ، خضعت الأندلس لحكم الأفارقة، وأصبحت تابعة لا

متبوعة .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

وفى أواخر عصر الموحدين، أخذت المدن الأندلسية تنهوى فى يد الإسبان مدينة إثر مدينة ، ولم يبق سوى غرناطة وبعض الحصون التى ظلت تقاوم ردحا من الزمن إلى أن سقطت فى آخر الأمر، مؤذنة بأفول شمس الإسلام عن الأندلس^(١).

وعندما نتحدث عن الناحية الأدبية فى الأندلس، نجد ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح التناقض، فأنت تقرأ لهم شعرا فى الزهد والحكمة يخيل إليك أنهم كانوا زهادا متنسكين بدرجة عالية، وتقرأ فى ناحية أخرى شعرا فى المجون والخلاعة والتهتك تجعلك غاضبا من ضياع هذا الجهد الإنسانى أدراج الرياح والإنسان فى كلا الحالين على حق وصواب ؛ لأن الأندلسيين اتصفوا "بالحدة والتطرف فى نظرتهم للأشياء ، فقد وجدت بيئات الفقهاء والزهاد الذين كانوا يأخذون بالأشد فى كل حكم من الأحكام المتصلة بأمور الدين، كما وجدت معها بيئات أخرى مالت إلى التساهل والتحرر، فصار فيها المحظور مباحا، وأصبح غير المؤلف مألوفاً، وأسرف كثير من الناس فى سلوكهم الاجتماعى، وعاش بعضهم حياة لاهية صاخبة"^(٢) .

ومع ذلك كله، فقد ظلت الصبغة العربية المشرقية هى الغالبة على شعراء الأندلس، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن شعراء الأندلس ظلوا طوال عصورهم العربية "يحاولون محاكاة المثل العليا الشعرية المشرقية، صادرين فى ذلك من جهة عن طبيعة بيئتهم التى تعودت أن تتلقى وتستقبل من الأمم التى تنزلها، ومن جهة ثانية عن طبيعة العرب الذين يتمسكون تمسكا شديدا بتقاليدهم الأدبية وخصائصها المتميزة"^(٣) .

١- راجع فى ذلك :

- الكامل فى التاريخ ، لابن الأثير، ج٤/٥٥٦: ٥٦٧، دار صادر - بيروت ١٩٧٩م.
- الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية، السيد أحمد بن زينى دحلان (مفتى مكة) ج١/١٩١: ١٩٣ ، الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للطبع والتوزيع بالقاهرة، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٦٨م.
- تاريخ الأدب العربى، أحمد حسن الزيات/٣١٢ : ٣١٤ .
- الهجاء فى الأدب الأندلسي، د. فوزى سعد عيسى/١٨، ١٩ .
- ٢- الهجاء فى الأدب الأندلسي/ ١٩، ٢٠ .
- ٣- فصول فى الشعر ونقده، د. شوقى ضيف/١٤٤، الطبعة الثانية، دار المعارف ١٩٧١م.

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

ولا يعنى هذا القول أن شعراء الأندلس لم تظهر شخصيتهم فى أشعارهم فقد وجد بين الحين والآخر شعراء مجيدون، استطاعوا أن يعبروا عن شخصية مجتمعهم من بعض الوجوه .
وفيما يخص جانب السخرية فى شعر الأندلس، نجد أن بيئة الأندلس كانت بيئة متحضرة ، ومعلوم أن التحضر يرقى بالعقول والأذهان، فكلما ارتقى فكر الإنسان، كان أقدر على لمح الدقائق والعيوب ، وكشف أوجه الخلل والقصور .
والبيئة المتحضرة – بعد ذلك – تعين شعراءها على أن يتناولوا ما وقعت عليه أعينهم من نقائص وعيوب بصورة تتميز بالسخرية والتهكم، وتناسب الذوق المتحضر .
ولعل مما أعان على شيوع الهجاء الساخر فى بلاد الأندلس: ما شاع فى البيئة الأندلسية المتحضرة من لهو وفراغ وميل إلى الدعابة والتظرف، كما أعان على ذلك – أيضا – طبيعة الأندلسيين أنفسهم الذين جبلوا على خفة الظل، وكلفوا بالمزاح والدعابة^(١) .
وقد تنوعت السخرية عند الأندلسيين، فكان منها الشخصى ، ومنها السياسى ومنها الاجتماعى.

وإن كان اللون السياسى هو الذى يغلب على كل هذه الألوان .
ومن أمثلة السخرية عند الأندلسيين، قول "ابن صارة الشنترينى"^(٢) يسخر من أحد الكتاب فى عصره^(٣):

وأغريـنـتـحـل الكـتـابـة خـطـة	متوقـد كـالـحـيـة النـضـناض
شـق السـواـد فأصـبـت أسـنـانـه	تـشـرى السـواـد بـيـع كل بـيـاض
فإـذا شـحـافـه رأيت خـنـافـسا	يأويـن مـن فـيـه إـلى المـرحـاض

١- انظر: الهجاء فى الأدب الأندلسى، د. فوزى عيسى ١٨٧ .
٢- هو الأديب أبو محمد عبد الله بن صارة البكرى الأندلسى الشنترينى الأصل، من شعراء المائة الخامسة، نزل إشبيلية، وسكنها وتعيش فيها بالوراثة، تجول فى بلاد الأندلس للتعليم بالعربية حتى نبغ فيها، وامتدح الولاة والرؤساء، وكان حسن الخط، جيد النقل، وتوفى سنة ٥١٧ هـ .
(ينظر فى الترجمة: الذخيرة، لابن بسام، ت: د. إحسان عباس ٨٣٤/٢/٢، طبعة دار الثقافة بيروت ١٩٧٩ م)
- وفيات الأعيان، ج ٩٣/٣ - المجلة العربية، العدد ٩٥/٣٠٩، شوال ١٤٢٣ هـ - ديسمبر يناير ٢٠٠٢ م
٣- الذخيرة ، لابن بسام، ٨٤٥/٢/٢ ، "الكامل التام".

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

فالناظر فى مطلع هذه الأبيات، يتخيل - لأول وهلة - أن الشاعر يمدح هذا الكاتب، ويصفه بصفات حميدة؛ ذلك لأنه بدأ كلامه بوصفه ببياض الوجه، واتخاذ الكتابة ديناله، ثم يأتى الشطر الثانى من البيت الأول حاملا وصفه بالتوقد والسرعة والنشاط، وكأنه حية لا تستقر فى مكان، وتخرج لسانها بصفة مستمرة وهنا تبدأ السخرية من هذا الكاتب، ثم يواصل الشاعر سخريته فيصفه بشدة سواد الأسنان، حتى إن أسنانه لتشتري السواد وتبيع ما فيها من بياض، مما جعل منظر فمه منظرا قبيحا بشعا، فهو إذا فتح فمه ، رأيت أسنانه فى سوادها - تشبه الخنافس التى تريد الإيواء إلى المرحاض .
وهذه سخرية مرة ولادعة للغاية، قدمها الشاعر فى أسلوب هزلى مضحك ولكنه مميت وقاتل .

ومن السخرية الاجتماعية التى برع فيها شعراء الأندلس، قول أمية بن أبى الصلت الأشبيلي^(١) فى شخص ثقيل الظل^(٢):

لى جليس عجبت كيف استطاعت هذه الأرض والجبال تقله
أنا أرعاه مكرها وبقلبي منه ما يقلق الجبال أقله
فهو مثل المشيب أكره مرآه ولكن أصونه وأجله

فالشاعر - هنا - يصف هذا الجليس بالثقل الفادح، ويتعجب من الأرض والجبال، لأنها استطاعت أن تحمله - على ثقله - وتنقله من مكان إلى مكان .
ويذكر الشاعر أنه يستمع إلى حديث هذا الثقيل مكرها غير راض ، ولكن القلق والهم الذى بداخله جدير بأن يزلزل الجبال، ويعصف بها شئ قليل منه، فمثل ذلك الإنسان الثقيل كمثل الشيب يكره الإنسان مرآه ولكنه يصونه ويجله .

١- هو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت الإشبيلي، كان بارعا فى الطب والفلسفة والتلحين، وله كتاب "الحديقة" سار فيه على أسلوب "البييمة" للثعالبي عاش ستين عاما، وتوفى عام ٥٢٠هـ وقيل ٥٢٨هـ بالمهدية ودفن بها ينظر فى الترجمة: - نفع الطيب ، للمقرى، ت: د. إحسان عباس ج ١٠٥/٢، ١٠٦ دار صادر بيروت ١٩٨٨م .
٢- نفع الطيب، المقرى، ج ١٠٨/٢ ، "الخفيف التام" .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

والسخرية من هذا الثقيل لا تخفى في هذه الأبيات ، وقد سلك الشاعر إليها مسلك
المبالغة والتزديد في القول .

ولعل الذي دفعه إلى ذلك هو الرغبة في الإيلاء، حتى يقوم ذلك الإنسان من فساد
سلوكه ، واعوجاج مذهبه .

ومن السخرية الشخصية في هذا المقام قول الشاعر الأندلسي عبد الله بن كليب^(١)
ساخرا من أنف الزهري^(٢) :

أنفك يا زهري في قبحه كأنه في صورة البوق^(٣)
يقعد في البيت لحاجاته وأنفه يمشى إلى السوق

برع شعراء الأندلس في التقاط العيوب الجسمانية وتكبيرها بصورة تبرز مدى
عنفهم في النقد والتوجيه .

والشاعر هنا يصف أنف الزهري هذا في قبحه بأنه كالبوق، وهو ما ينفخ فيه
ويذمر فيعلم المراد منه .

ويبالغ الشاعر في وصف هذا الأنف بكبر الحجم، حتى إنه يجعله يذهب إلى السوق
للشراء بينما الزهري صاحبه يقعد في بيته لقضاء بعض حوائجه .

وهذه سخرية مرة ولادعة، وهي تعتمد على المبالغة والمغالة التي عرف بها الأندلسيون؛
نظرا لاتصافهم بالحدة والشدة والتطرف في نظرتهم إلى الأشياء كما قلنا من قبل^(٤) .

١- هو عبد الله بن كليب بن عبد السلام شاعر الأندلس ، عاش في عهد الناصر، وتوفي عام ٣٠٦ هـ .
ينظر في الترجمة:

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى، تحقيق: ج. س . كولان . ليفي يرو فنال، ج ٢/١٧٤،
الطبعة الثانية ، دار الثقافة - بيروت - لبنان ١٩٨٠ م .
- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، لمحمد بن عبد الله الكتاني تحقيق د. إحسان عباس ص ٢٩٨، دار الشروق
١٩٨١ م .

٢- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس / ٥٦٧ ، "البحر السريع" .

٣- البوق: ما ينفخ فيه ويذمر (اللسان ، ج ١/٣١) .

٤- راجع: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشكعة/ ٥٥، ط ٣، دار العلم للملايين- بيروت- لبنان ١٩٧٢ م .

السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين

هذا وينبغي أن نشير إلى أن السخرية عند الأندلسيين، قد بلغت من الرقى والتطور مبلغا كبيرا، فقد كان الأندلسيون – كما ذكرنا من قبل – من أقدر الناس على التقاط العيوب والنقائص، وتصويرها في صور هزلية لاذعة.

وقد اتصفت السخرية عند الأندلسيين بطابع المبالغة والمغالة؛ نظرا لطبيعتهم النفسية التي تتصف بالشدة والحدة، والتطرف في كل شيء.

وبعد، فهذه إشارات عاجلة، طوفت حول الشعر العربي القديم (جاهلي وإسلامي، وعباسي، وأندلسي) لإبراز الجذور العميقة لفن السخرية، وقد وقفنا على شواهد متعددة لها عبر العصور الأدبية المختلفة، مما ينبئ – في غير شك – عن أصالة فن السخرية، واتصال حاضره بماضيه في صورة متلاحقة ومتكاملة.